جوامع النجف الاشرف

للشيخ ضياء الدين الدخيلي

من ذكرياتي التي أنتعش كلما حلقت في سمائها سويعات ممتعة ألقيت فيها محاضرة على زمرة من أساتذة العالم العربي في مدرسة ، طالما حنت أضلاعها على جهابذة قادوا الرأي العام الإسلامي وبقوا مصابيح هداه في عصر كانوا هم المهيمنين على جميع مقدرات أمة القرآن . منذ بضع سنوات طرق النجف الأشرف وفد الجامعة المصرية وفي طليعته الأستاذ أحمد أمين والأستاذ الزيات حين كان رسول الأدب إلى عاصمة المأمون . إذ ذاك تحفزت لمقابلة تلك العبقريات اللامعة التي أنفقت ليالي في الاستمتاع بثمراتها الغنية بالغذاء الروحي ؛ ما هي إلا خطوات أثقلتها الخواطر والعزمات حملتني أن أغادر مدرسة السيد كاظم اليزدي (إحدى المدارس الإسلامية الكبيرة في النجف الأشرف) لاستقبال موكب الثقافة ، وإذا بجلبته تملأ مدخل المدرسة الشمالي ، فوقفت تحت مصباح زيتي يلفظ أشعته الباهتة كأنه رمز عصر ينقرض ؛ في سكون المدرسة الذي زاده اعتكار الليل وروعة المفاجأة — هيبة وجلالاً — وقفت أحدث أفلاذ القاهرة عن قطعة من جسم مزقته الحوادث القاسية عن الحركة العلمية والأدبية في هذا البلد الطيب ، أحاطوا بي يصغون إليّ وقد تآلفت القلوب الخفاقة وألهبت العواطف دم العروبة الإسلامية فكللنا بهالة من روابط روحية قدسية . وتمضي الأيام وإذا بسماحة السيد أمين الحسيني ورفيقه دولة محمد علي علوبة يزورانا فأجتمع بهما في نفس البنية لأحدثهما عن حياتنا الدراسية ، فأجد في إقبالهما وابتهاجهما طلائع الوحدة العربية الإسلامية تتجلى متجلببة هذه النزعة للتعارف فالتآلف فالتضام ؛ وحقاً إن الحركة العلمية في هذه البقعة وأساليب الدراسة — ذات أطراف وأفانين شائقة تتطلع لتفرسها النفوس تواقة لما فيها من مزايا وصبغة خاصة وليدة عوامل عديدة لم تجتمع لغير هذه المعاهد ، فقد لاحظت ذلك حتى في الغربيين إذ جاءنا سرب من الأمريكان والانكليز منذ أيام فزاروا المدرسة وبينت لهم طرفاً من سير الدراسة وترجمت لهم إلى الانجليزية حديث بعض إخواني من أساتذة ذلك المعهد ، فآثار الوضع إعجابهم ولم نشعر إلا وآلات التصوير صوبت شطرنا تلتقط المشاهد المختلفة كأنها تحاول أن تلقي علينا درساً عن تقديس السياح الغربيين للمادة المحسوسة في موضع لم يكترث فيه أبناء مصر وسورية لغير روحياته ، وكم بين الشرق والغرب من شذوذ وفوارق !

الحياة المدرسية في حاضرتنا متشعبة الأطراف ، حسبي أن أزودك منها بقطفة العجلان ولمحة الطائر ، مخططاً لك فكرة عامة سوف أشفعها بتفصيل واف قد يرضي الأستاذ علياً الطنطاوي ومن شاطره رغبته

يزدحم في جوامع النجف الأشرف ألوف المهاجرين لانتجاع الثقافة الاسلامية قد امتطوا ظهور الأسفار من كل حدب وصوب من شتى الأقطار الشيعية . ففيها المشرات من سورية من جبل عامل وغيره ، والألوف من مختلف أنحاء إيران وفيها من سمرقند وبخارى وغيرها من تركستان ، وفيها من أذربيجان وفيها الكثير من الهند والأفغان وهضبة التبت ، هذا عدا من يرتادها من أطراف العراق ومن شيعة الحجاز . لذلك قد شيدت في النجف الأشرف

هذا هو نصيب جده من العظمة ومن جاه الحياة ! ولكن متى كان الإنسان بجدوده وآبائه ؟ وأي فضل لامرئ يرث الجاه ولا يكسبه ويُعطى العظمة ولا يبنيها ؟

تلك هي حياة « أيب » وذلك هو محيطه وهو في السابعة . أجل هي تلك حياة رئيس الولايات المتحدة في أولى مراحلها في أحراج مقاطعة كنتوكي حيث لا مدنية ولا تعليم ولا رفاهة ! كلا ، بل لقد ذهب الغلام إلى المدرسة في خاتمة تلك المرحلة ؛ ولكن أية مدرسة هي ؟ كانت كوخاً من كتل الخشب أقيم كما أقيم كوخه الذي يعيش فيه ، وكانت تبعد عنه نحو أربعة أميال ، وكان يذهب إليها كلما استطاع أن يطلقه أبوه من أعمال النجارة في الغابة فيجلس ساعات مع الصبية على الأرض إلى معلم يعلمهم الهجاء بأن يناولهم كتاباً واحداً يمر عليهم جميعاً الواحد بعد الآخر فيتعلمون الحروف ورسمها ونطقها ! ويسأل الصبي نفسه في لهفة شديدة متى يستطيع أن يكتب ويقرأ كما تفعل خالته وأمه ؟ إن ذلك غاية مبتغاه ومنتهى هواه

(يتبع) الخفيف

المدارس العديدة ذات الغرف المعدة لإيواء الغرباء حيث يكفل المجتهدون (وهم أئمة الشيعة الذين يرجعون إليهم فى بيان أحكام دينهم مستنبطيها من القرآن والحديث وأسس التشريع الإسلامى) ضمان معاشهم وتجهيزهم بأهبة الدراسة، ينفقون عليهم من بيوت المال التى تصب فيها الشيعة الذهب والفضة من كل ناحية وجانب باسم الزكاة والخمس وحق الإمام وأثلاث الموتى وغير ذلك من الوجوه الشرعية

نموذج من مدارس النجف وهي صورة القسم الشمالى من الصحن العلوى المقدس

يبدأ الطالب بدراسة النحو والصرف فينكب على الأجرومية ثم شرح القطر لابن هشام، ثم شرح ألفية ابن مالك لابن بدر الدين (هذا منهاج الطلاب العرب، أما الفرس فيدرسون كتباً بعضها بالفارسية يلمها مجلد باسم جامع المقدمات، ويدرسون شرح السيوطى لألفية ابن مالك) ثم يتناول الطالب مغنى اللبيب لابن هشام، ثم يشرع فى المنطق فيدرس حاشية الملا عبد الله على منطق التهذيب، ثم شرح الشمسية، ويتوسع بشرح المطالع ومنطق إشارات ابن سينا وشرحه وكتب كثيرة كحاشية الخبيصى ومختلف كتب المنطق مجهداً نفسه بمراجعة الشروح والحواشى عليها بأسلوب ودراسة لا تعرف النظرة السطحية؛ ومن ثم ينكص قافلاً إلى الأدب فيدرس شرح التفتازانى المطول لتلخيص المفتاح فى المعانى والبيان والبديع ويتوسع بمراجعة الإيضاح ومفتاح العلوم للسكاكى، وشرح السيد الشريف للقسم الثالث منه، ولا يذر مؤلفاً فى البيان إلا ويوسعه تمحيصاً

وبعد علوم البيان يخوض الطالب غمار التشريع الاسلامى وقد سبب انفتاح باب الاجتهاد عند الشيعة أن تشعبت أطراف علم الفقه وكثرت المؤلفات فيه وفى أصوله

نبدأ بدراسة (المعالم) فى أصول الفقه للشيخ حسن ابن الشهيد الثانى نضم إليها كتاب (الشرائع) فى الفقه للمحقق الحلى ثم ندرس (القوانين) فى الأصول للمحقق القمى مع (شرح اللمعة الدمشقية) فى الفقه والأصل للشهيد الأول والشرح للشهيد الثانى ثم ندرس (الكفاية) فى الأصول للشيخ ملاّ كاظم الخراسانى ثم فى الأصول العملية (رسائل) الشيخ مرتضى الأنصارى مع كتابه فى الفقه (المكاسب) ولا يقنع الطالب بهذه الكتب بل يكثر الترداد على المصادر الأخرى للتوسع فيطالع فى الأصول (بحر الفوائد فى شرح الفرائد) وحاشيتي سلطان والشيخ محمد تقى على المعالم و (حقائق الأصول) و (عدة) الشيخ الطوسى و (أنيس المجتهدين) و (تشريح الأصول) للشيخ ملا على النهاوندى و (خزائن) الدربندى و (منهاج الأصول) و (غاية المسئول) و (شرح العضدى) و (تهذيب الأصول) إلى غير ذلك من الكتب العديدة فى الأصول التى قضيت فى دراستها زمناً ذهبياً (بأوراقها الصفراء) ونطالع فى الفقه (جواهر الكلام) وهو فى عدة مجلدات من أهم الكتب يتوسع مؤلفه كثيراً فى أبحاثه ولا يترك مذهباً فى المسألة لا ينقد أدلته، و (الحدائق) و (المسالك) و (المدارك) و (البرهان القاطع) و (تذكرة العلامة) و (قواعده) و (سرائر) ابن ادريس و (الرياض) و (مستند الشيعة) و (مختلف) العلامة و (تحريره) و (جامع المقاصد) و (جامع الأعرجى) وشرح منظومة بحر العلوم و (كشف الغطاء) و (المبسوط) و (طهارة) الشيخ وهو مجلد واحد، وقد وجدت للعلامة الشيخ دخيل كتاباً فى عشرة مجلدات أسماه (بأنوار الفقاهة) وإن هذه المجلدات العشرة كلها تبحث فى فصل واحد فى الفقه وهو فصل الطهارة فياله من توسع فى البحث!

وبعد دراسة كتاب (الرسائل) فى الأصول يحضر دروس العلماء الكبار الذين يحاضرون في التشريع الاسلامي وأصول الفقه متخللة أبحاثهم جولات فى علم الرجال وفي التفسير والفلسفة (التى يدعونها هنا الحكمة) إذ يرتفع المجتهد على منبر عالٍ حيث يزدحم تحته المئات من الرؤوس (البيضاء والسوداء بعمائمها) تلك الرؤس التي هذبتها الدراسات الفردية فعادت لا تستند إلى كتاب

تفتحه بينها وبين أساتذتها كما كانت فى الأول ، إنما يتناول المجتهد أطراف العلم فيناقشه طالبته بكل حرية ويتنقلون في الفصول المختلفة من دون التزام بكتاب واحد وإنما يستعرضون المذاهب فى المسألة وينقدونها من جميع وجوهها على ضوء حرية الفكر ثم يرجحون مايختارونه من الآراء ، وهنا يقضى الطالب عدة سنوات حتى يدرك درجة الاجتهاد وهى ملكة يقتدر بها على استنباط أحكام الشرع الشريف من مصادرها ، حينئذ يمتحنه مجتهدو عصره ليعطوه إجازة الاجتهاد وهى الشهادة العليا . وفى السنين الدراسية الأخيرة يتجه البعض إلى دراسة الكلام والفلسفة الاسلامية فيدرس فيهما (شرح المنظومة) للسبزوارى و (شرح التجريد) للعلامة الحلى و (شرح إشارات ابن سينا للخواجه نصير الدين الطوسى و (أسفار) ملاصدرا و (الشوارق) لعبد الرزاق اللاهجى و (الشفاء) لابن سينا . والحق أن جوامع النجف الأشرف تدرس الفلسفة الاسلامية بتوسع لا مزيد وراءه . كنت أدرس شرح إشارات ابن سينا لدى شيخ فارسي يدعى (الدامغانى) فكان يتمعن فى تدقيقه فلا يدرس فى اليوم أكثر من نصف صفحة أو ربعها بالرغم من أن الدرس يستغرق ساعة أو أكثر وكنا نذهب إلى داره بعد الظهر بقليل وذلك فى صيف النجف الأشرف تكليف شاق لا يطاق لشدة الحرارة فى هذه البقعة الجافة . فى هذه البلدة الجاثمة على حدود الصحراء العربية الملتهبة بضرام حصاها ولا سيما أنى كنت أخرج من سراديب مدرسة السيد كاظم اليزدى التى تتوغل عميقة فى الأرض حيث تغوص بك فى مناخ بارد شتوى يضطرك إلى الالتحاف بما يقيك أذى البرد القارس . ولربما يتذكر تلك السراديب الأستاذان الزيات وأحمد أمين وصحبهما فقد أنزلت الوفد إلى سراديب المدرسة وحملت له المصباح وجلنا فى أحشاء هذا المعهد العلمى . ولكم أعجبت تلك السراديب السياح فكتبوا عنها الكثير وهى ابتكار لطيف فى التغلب على الطبيعة القاسية والتمرد على عذابها ـ ولكن أستاذى الدامغانى كان أقسى . فكم أجهدنا فى خوض معارك الفلاسفة الدامية يقذف بنا فى جحيم الخصومة العنيفة بين الخواجه نصير الدين الطوسى وبين محمد بن عمر الخطيب الرازى وكل منهما شارح للأشارات ، ولكنى ابتليت قبله باستاذين درست عليهما الفلسفة فى حلقتين كبيرتين تضم العراق والفارسى والتركى والسورى الخ كأنها سفينة نوح فى الأساطير ، كان كل من هذين الأستاذين مفتوناً بسعة اطلاعه فى المذاهب الفلسفية وما تهجه العقل البشري من أحابيل وأضاليل وما كشف النقاب عنه من حقائق ناصعة فكانا غفر الله لهما يركضان بنا فى ميادين واسعة من أفكار فلاسفة اليونان من مشائين وإشراقيين ومن محاجّات فرق المسلمة وطوائفها من أشاعرة ومعتزلة وشيعة وصوفية وباطنية حلولية إلى غير ذلك ؛ فاذا حمى الوطيس بين هذه المذاهب فليس عليك إلا أن ترهف سمعك ليفيض عليك هذان الأستاذان بخلاصة جهودهما الفكرية ، ألا أزيدك أن النجف الأشرف فى هذا العصر تدرس الطب اليونانى القديم وفيها أطباء من خريجى جوامعها يعالجون الأمراض المختلفة حسب تعاليم شرح النفس فى الطب وغيره ؛ وفى جوامع النجف الأشرف يدرس علم الهيئة والفلك عدا العلوم الرياضية الأخرى ؛ أما علوم الأدب من لغة وعروض وقافية وتاريخ أدب وشرح النصوص الأدبية ، أما التاريخ الإسلامي والعلوم الاجتماعية ، فان طلبة جوامع النجف الأشرف لا يتركون كتاباً جديداً إلا ويقتنونه موسميه بحثاً وإنعام نظر ، وقد خرجت هذه المدرسة كثيراً من الشعراء النابغين

والمكتبات فى النجف كثيرة منها الخصوصية وبعضها يفتح لعامة الناس كمكتبة آل كاشف الغطاء ومكتبة المعارف . وعندى مكتبة تضم حوالى ألف كتاب كثير منها مخطوط عزيز ، وقد زارها البحاثة عبد العزيز الميمنى الهندى المعلق على أمالى القالى فرأى كتاباً مخطوطاً قديماً أعجبه فقال : « لو ضربت آباط الإبل إلى الصين ولم أحظ بغير رؤية هذا الكتاب لكفانى ذلك غُنما »

وإن الطلبة هنا مشغوفون باستشراف الحركات الأدبية فى العالم العربى من مصر وسورية والمهجر ، ولمؤلفات (لجنة التأليف والترجمة والنشر) سوق رائجة لدينا

ولكننا لا يسعنا أن نفيض فى الحديث أكثر من هذا فيمل القارئ الكريم وإنما هذه نبذة تحدثت بها بصفتى أحد خريجى هذه الجوامع المقدسة

(النجف الأشرف — العراق) ضياء الدين الدرويش